الفصل الثامن

ذو الكفل عبد اللطيف
مناضل انقطع به الحبل

أميمة الشريف

لعب القدر دوره في تغيير مسار حياة ابن مدينة القدس، ذو الكفل عبد اللطيف، فبعد أن تم ترشيحه من قبل الحاج محمد أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، في عام ١٩٢٢، بناء على طلب ملك العراق آنذاك فيصل الأول، للالتحاق بالمدرسة العسكرية العراقية، وأثناء استعداده مع زملائه للسفر إلى بغداد، انتقل الملك فيصل إلى الرفيق الأعلى، وعندما وصل ذو الكفل إلى العاصمة العراقية كان أنهى، لتوه، الدراسة الثانوية في فلسطين، ووجد نفسه أمام عائق الجنسية، الذي منعه من الحلم، الذي تحمل الغربة عن الوطن من أجله، فالتحق بالسنة النهائية لدار المعلمين الابتدائية، في بغداد.

في هذه الأثناء، تعالت في العراق الشقيق أصوات نخبة من الشباب العربي، المؤمن بالقومية العربية، تنادي بالوحدة العربية، عبر جيل من الكوادر، قادر على تحقيق هذه الوحدة، والاستقلال، دون التقيد بأقاليمهم التي ينتسبون إليها، وكان من بينهم الدكتور سامي شوكت، مدير المعارف العام، صاحب شعار **«اخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم»**، الذي رفعه في المدارس الابتدائية، والثانوية العليا، والذي تأثر به ذو الكفل كثيرًا. وكان هؤلاء الشباب دعاة عروبة ووحدة بحق، وعملوا في سبيل عروبتهم بإيمان شديد، أفرز فئة من المؤمنين بعروبتهم، انتشروا يبشرون بيقظة عربية، وكان معظمهم معلمين وضباطًا، قاموا بتدريب النشء تدريبات رياضية شبه عسكرية، وشكلوا تنظيمات لذلك حملت اسم «الفتوة» وفرضوها على تلاميذ المدارس.

تخرج ذو الكفل في دار المعلمين الابتدائية، وعمل مدرسًا في إحدى مدارس مدينة الحلة، بالفرات الأوسط، يشقها فرع منه يسمى نهر النيل، ولقربها من النهر، وعدم تنظيم الري، في ذلك الوقت، كانت الحلة محاطة بالمستنقعات،

فانتشرت بين سكانها أمراض الملاريا، والبلهارسيا، وكان عبد اللطيف مسؤولًا عن الرياضة، وتنظيمات الفتيان، فشكل منهم فصائل تجوب مناطق ما حول الحلة، لمحاولة علاج المرض، وكان يقوم بحملات تفتيشية عليهم، فأصيب بالملاريا، وظلت الحمى تعاوده من وقت لآخر.

عاد في إجازة صيف إلى فلسطين، فهاجمته الحمى أثناء زيارته لأخيه، سعد الدين، في غزة، فأدخل مستشفى غزة الحكومي لمعالجته من الملاريا، وبرأ منها هناك، إلا أن أخاه رفض عودته مرة أخرى للعراق، فعمل مدرسًا في دار الأيتام الإسلامية في القدس، بادئا نضاله على أرض بلاده.

نقل خبراته الداعية إلى خشونة العيش، وأشرف على الأشبال، والجوالة، وتدريبهم مدفوعًا بتعليمات فتوة العراق، وكان يدرب تلاميذ دار الأيتام الإسلامية رياضيًا وعسكريًا، ويوزع الطلاب جماعات في أيام العطلات، على رأس كل جماعة عريف، ويزود كلًا منهم بخريطة طبوغرافية، ومدنية لإحدى المناطق أو القرى، ثم يرسلهم إليها، عند بداية ثورة ١٩٣٦[١]، ليختلطوا بأهلها، ويقوموا بتوعيتهم بما يدبر لهم ولبلادهم، كما حاول جمع شباب «الحزب العربي» في منظمات، أيضًا، على غرار «فتوة» العراق. وتشكلت لجنة تنفيذية أشرفت على تنظيمات الشباب، وكان هو أمين سر تلك اللجنة، التي ضمت بين أعضائها: علي محيي الدين الحسيني، إميل غوري، محمد نمر عودة، ورشاد التميمي.

ضمت دار الأيتام الإسلامية في القدس أبناء، وبنات الشهداء، والمصابين أثناء مقاومة قوات الانتداب البريطاني، وإلى جانب هؤلاء أيتام المسلمين، المحتاجين لرعاية عامة، يتلقون فيها جميعًا التعليم الابتدائي، ثم تهيئتهم صناعيًا، كلٌ حسب ميوله، وتربيتهم في جو وطني وديني، وقد أشرف على الدار المجلس الإسلامي الأعلى، وكانت تدربهم على النجارة، الطباعة، صناعة الأحذية، والخياطة، مستعينة بالحرفيين المحليين، كما كانت تستقدم الصناع المهرة لهذا الغرض من مصر، فنافست الصناعات الخارجية[٢].

عندما بدأ الإضراب السياسي العام في ٢٠/ ٤/ ١٩٣٦[٣] جند ذو الكفل تلاميذه بدار الأيتام الإسلامية، خاصة كبار الصناع منهم، للإسهام في إنجاح الإضراب، ثم التقى مع كل من الشهيد عبد القادر الحسيني، والمرحوم مصطفى الدردار، أمين صندوق الدار، والسيد صالح الريماوي، وكان مدرسًا بالدار، التقوا جميعًا في المطعم الوطني بالقدس لبحث توحيد العمل الوطني بالقدس، واستقروا على أن يعمل ذو الكفل والدردار داخل المدينة، فعمل مستعينًا بتلاميذه، وزملائه في «النادي الرياضي» بالقدس، وفي كل مكان، لصالح الإضراب والثورة.

كانت دار الأيتام في القدس القديمة، ومنافذها إلى الحرم الشريف، حيث تقع دار سماحة المفتي محمد أمين الحسيني، فكان ذو الكفل يتسلل من الدار، ليلًا، إلى بيت سماحة المفتي، فيتلقى منه التوجيه والإرشاد، ونشأت بينهما ثقة قوية، فبدأ المفتي يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا.

انخرط ذو الكفل في العمل الوطني، وأثناء ثورة ١٩٣٦ اتصل به هاتفيًا مأمور أوقاف القدس، السيد محمد عفيفي، وأخبره بأنه من الضروري أن يترك مدينة القدس، ويختفي بأي شكل، وأن المفتي يأمره بذلك؛ نظرًا لأن حكومة الانتداب البريطاني أصدرت أمرًا باعتقال ذي الكفل لنشاطه، فامتثل لأمر المفتي، ونقله زميله، فايز التاجي، بسيارته الصغيرة إلى بيت زميل صباه، وزميل دراسته في كلية روضة المعارف محمد توفيق الغصن، ابن توفيق بك،

رئيس حزب مؤتمر الشباب، والوطني الكبير. ومكث ذو الكفل في دارهم حوالي شهر، ثم غادر البلاد من ميناء حيفا متوجها إلى العراق في ذات اليوم الذي ناشد فيه ملوك، وأمراء العرب أبناءهم الفلسطينيين بوقف الثورة؛ لثقة الملوك والأمراء في صديقتهم بريطانيا، وأنها ستعمل على إنصاف العرب!

في بغداد تأججت روح القومية العربية، وتكوَّن «نادي المثنى» الذي ضم جميع القوميين العرب، وانبثق عنه «جمعية الدفاع عن فلسطين»[٤]، برئاسة سعيد الحاج، وأصدرت الجمعية جريدة حررتها نخبة من الشباب العربي باسم جريدة «الدفاع عن فلسطين».

التحق عبد اللطيف بدار المعلمين العالية، وكانت تضم نخبة من الأساتذة العرب، الفلسطينيين، السوريين، والمصريين، والعراقيين، حتى غدت بمثابة جامعة للثقافات العربية، ساعدت على تشكيل وعي صاحبنا، ورفاقه الدارسين. وأثناء دراسته، التي استمرت ثلاث سنوات، لم ينقطع عن عمله الوطني، بل كان على اتصال بالمفتي أمين الحسيني، في فلسطين، وخاصة في القدس.

شعر الملوك والرؤساء العرب بالخيبة، والخذلان نتيجة لعدم قيام بريطانيا بإنصاف العرب الفلسطينيين، فتأججت نيران الثورة، وعم الإضراب أرجاء فلسطين، فأرسلت بريطانيا لجنة للتحقيق في أسباب الثورة والإضراب، أسفر عن صدور توصية بتقسيم فلسطين، ولم تلتفت بريطانيا لمطالب العرب بوقف الهجرة اليهودية إلى البلاد، أو إعطاء الفلسطينيين حق تقرير مصيرهم، فخاب أمل العرب، وخاصة الفلسطينيين، الذين ازدادوا ثورة، وفدائية، في ظل غياب الدعم، والمساعدة الرسمية العربية.

في سنة ١٩٣٩، عين عبد اللطيف مدرسًا للتاريخ بمدرسة الرمادي، حيث لا حياة اجتماعية بتلك المدينة الصغيرة، فانغمس صاحبنا في نظام الفتوة.

قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩، وضيقت حكومة الانتداب على زعماء حكومات سوريا، ولبنان، وعلى الفلسطينيين الذين يقيمون فيهما، ويساعدون الثورة، فاضطر هؤلاء إلى اللجوء إلى العراق، وكان منهم شقيق صاحبنا، سعد الدين، فضلا على كل رجال أمين الحسيني.

سافر المفتي إلى بغداد مع بعض رجاله قبل انتهاء العام الدراسي، وأرسل في طلب ذي الكفل للحضور لمقابلته في أقرب وقت ممكن، وعند لقائه، أخبره أنه تمت الموافقه على التحاقه بدورة ضباط الاحتياط الخاصة بخريجي دار المعلمين العالية، وأن عددا من الإخوة الفلسطينيين سوف يلتحقون بدورة أخرى لضباط الاحتياط، منهم عبد القادر الحسيني، جميل بركات، عبد الرحيم محمود، فؤاد نصار، عبد اللطيف القدومي، وآخرون، وكان لكل منهم اسم حركي، وكان هو (كافل)، وقد تخرج من الدورة بعد ستة أشهر.

أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب العالمية على ألمانيا وحلفائها، وكانت بريطانيا تعلم جيدًا مدى البغض الذي يكنه العرب لها، ولفرنسا، خاصة وأنها ساعدت في اقتطاع جزء غال من جسد الأمة العربية، ومنحته للصهاينة، وكانت بريطانيا تعلم أيضًا مكمن الخطر الذي يهددها من تجمع أحرار وقوميي المشرق العربي في العراق، فعملت على إجهاض أي محاولة يمكن أن يشاغبوا لها على سير الحرب، فطلبت لندن من نوري السعيد عدة مطالب، أولها قطع العلاقات مع ألمانيا وحلفائها، ففعل دون الرجوع إلى السلطة التشريعية في بلاده، وكان من بين طلبات الإنجليز أن يوضع

الجيش العراقي تحت الإدارة الإنجليزية المباشرة، فرد الضباط الأحرار العرب الموجودون بالعراق بالاستهجان كيف يدخل العراق الحرب قبل أن تتعهد بريطانيا بحل قضيتي فلسطين وسوريا، ودون أن تمنح بريطانيا للعراق استقلالًا ناجزًا؟! فيما كان نوري السعيد يرى أن يترك تلك الأمور لما بعد الحرب!

في أول أبريل/ نيسان ١٩٤١ طلبت بريطانيا من الحكومة العراقية السماح لها بإنزال قوات بريطانية في ميناء البصرة، وتعزيز بعض الحاميات في القواعد البريطانية، فرفض رئيس الوزراء، حينها، رشيد عالي الكيلاني، وإزاء رفضه أعلنت بريطانيا الحرب على العراق في الثاني من مايو/ آيار من العام نفسه، فهرع جميع مجاهدي ثورة فلسطين ١٩٣٦، الذين سبق أن لجأوا للعراق، وغيرهم من العرب الموجودين على أرض العراق، للانخراط في صفوف الجيش العراقي، وبينهم عبد اللطيف، وقد ساعد ذلك المناخ على أن يتلقى المجاهدون الفلسطينيون التدريب العسكري، كل حسب مؤهلاته، وتم توزيعهم على جبهات القتال.

بعد يومين من نشوب الثورة التي عرفت بثورة رشيد عالي الكيلاني[٥]، استدعى المفتي الحاج أمين الحسيني ذا الكفل، وكان، حينها، مشرفًا على الأمن الداخلي في المدرسة المتوسطة الشرقية في منطقة السنك ببغداد، وأبلغ المفتي ذا الكفل قرار انتدابه قائدًا للمتطوعين الفلسطينيين في قوة البادية، بدلًا من فوزي القاوقجي[٦]، الذي أثيرت حوله عدة شبهات جراء رفضه إرسال الأسلحة التي كان يشتريها بأموال «لجنة الدفاع عن فلسطين» إلى الثوار في فلسطين، وكلف المفتي عبد اللطيف بمهمتين في هذا الخصوص، الأولى هي إقناع القاوقجي بتسليمهم السلاح، إذا رفض أن يحضره بنفسه كما كان متفقًا عليه، والثانية تزويد الثورة بضباط صف مدربين لقيادة الفصائل وتدريبها، بعد أن استشهد من قادة التشكيلات الشبابية الكثير، فذهب ذو الكفل للقاء القاوقجي، واحتدم بينهما النقاش والخلاف، واستطاع ذو الكفل بمساعدة ثلاثة من ضباط كتيبة الهاشمي الخيالة إقناع حوالي ستة من ضباط صف الكتيبة بالالتحاق بالثورة في فلسطين، وتم تزويدهم بملابس مدنية، وتأمين سفرهم، إلا أن القاوقجي علم فثار، وأخبر رئيس الوزراء العراقي، آنذاك، جميل المدفعي، وكان ممالئًا للإنجليز، فقام المدفعي باستحضار محمود سلمان، قائد الكتيبة، وهدده إن لم يعد هؤلاء الضباط الستة بمحاكمته عسكريًا، فاضطروا لاستعادة ضباط الصف من الطريق، وكانوا قد وصلوا إلى سامراء، أما عن السلاح، فكان يعمل ذو الكفل ورفاقه على شرائه لحساب الثورة في فلسطين.

مرت الأحداث، وتأكد ذو الكفل من صحة الشائعات التي أثيرت حول القاوقجي، فقدم ذو الكفل تقريرًا لرئاسة الأركان في بغداد، وآخر لسماحة الحاج أمين الحسيني، أخبره فيها بخطورة الأمر، وبأن تصرفات القاوقجي سوف ينتج عنها سقوط بغداد خلال أيام قليلة، وبالفعل سقطت بغداد بعد يومين فقط، وظل هذا التقرير ضمن محفوظات الأركان الوثائقية، كما أخبر عبد اللطيف صديقه، أحمد محمود الجنابي، الذي كان يعمل بها.

خرج ذو الكفل من العراق إلى تركيا بعد سقوط ثورة الكيلاني، مستغرقًا في فكرة إعادة تنظيم الصفوف، والحصول على مزيد من التدريبات العسكرية، فضلًا على التسليح المناسب، بمساعدة الألمان، بصفتهم أعداء العدو البريطاني، ثم العودة للنضال على أرض فلسطين لتخليصها من الأعداء الإنجليز، والصهاينة، على حدٍّ سواء.

في ذلك الوقت كان كل من المفتي أمين الحسيني[٧]، ورشيد عالي الكيلاني في طهران، ولم يكن التفاهم مع الألمان قد تم، وفي هذه الأثناء أقام الألمان في ضواحي أثينا معسكرًا للتدريب العسكري، جمعوا فيه بعض شباب العرب ممن كانوا يدرسون في أوروبا، وخاصة في ألمانيا، وأيضًا، مَنْ فروا مع القوات الألمانية بعد انسحابها من سوريا ولبنان،

فضلًا على أن الألمان أرسلوا للبلدان الأوروبية، التي يوجد بها شباب عرب، وإلى إستانبول، مَنْ حض هؤلاء الشباب على الالتحاق بالمعسكر، واختير ذو الكفل للذهاب إلى أثينا في مهمة استكشافية للتعرف على ما إذا كان هذا المعسكر قائمًا بالفعل، بهدف إعداد هؤلاء الشباب، وتدريبهم للقيام بمهام تحررية؟ فإن كان ذلك هدفه التحق به، وأشرف عليه، وإن لم يكن عاد إلى إستانبول ليقدم تقريرًا عنه.

في أوائل ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤١ سافر ذو الكفل إلى أثينا، التي وصلها بعد رحلة طويلة شاقة، واستقبله في أثينا شخص ألماني يتحدث اللغة العربية، اسمه «كاسمان»، وفي اليوم التالي اصطحبه كاسمان، لمقابلة المايور «فون بادن»، الذي اتضح فيما بعد أنه كان رئيسًا للاستخبارات الألمانية لشؤون الشرق الأوسط، وخاصة البلاد العربية، فرحب بذي الكفل، وطلب منه إخباره بحقيقة مهمته، التي يعلم إطارها العام، فأخبره عبد اللطيف بما طلب.

بعد يومين من لقاء المايور فون اجتمع مايور آخر يدعى «ركز» المشرف على المعسكر مع ذي الكفل بفندق جراند بريطانيا، وتحدث ثلاثتهم عن مهمة الشاب العربي، فوعده ركز بتسهيل مهمته بزيارة المعسكر، والتحدث إلى مَنْ فيه، إلا أنه عوق الزيارة، لكن ذا الكفل تمكن والتقى ببعض عناصر من الشباب العربي بالمعسكر، الذين كانوا من خيرة شباب العرب وطنية، وثقافة، وقومية، ومنهم الملازم فؤاد البيسار، الذي استشهد في إحدى الغارات الجوية على برلين، والسيد إبراهيم الميسقاوي، والسيد فوزي المدرس، والسيد ممدوح الميداني، والسيد رمزي الألجاتي، والسيد السعدي بصبوص. كما التقى عبد اللطيف، أيضًا، بعسكريّن كانا يقيمان إقامة جبرية فيها، بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني، إذ فشلت أثناء تواجدهما في إيطاليا للحصول على طائرات للجيش العراقي، كما التقى بالشاعر عبد اللطيف الكمالي، الذي كان يعمل مذيعًا في إذاعة بغداد أثناء حركة رشيد عالي الكيلاني، وكان طالبا في كلية الحقوق ببغداد، وغادرها بعد فشل الحركة.

اكتشف ذو الكفل أن لا علاقة لما أشيع حول طبيعة المعسكر بحقيقته، وأن الشباب القومي العربي الذين التحقوا به خاب أملهم فيه، لكنه يحول دون فكاكهم منه طبيعته العسكرية، فاستمروا فيه حتى تخرجوا ضباطًا، عدا بصبوص، الذي تركه قبل التخرج، وعمل مذيعًا في إذاعة «العرب الأحرار».

أبلغ ذو الكفل الألمان بأن مهمته في أثينا انتهت، وأنه يرغب في العودة إلى إسنانبول، إلا أنهم رفضوا، وعرضوا عليه الإقامة الجبرية في أثينا على اعتبار أنه في ضيافة الألمان، لكنه رفض مقررًا أنه جاء إلى أثينا في مهمة محددة من قبل رؤسائه، وأنه إزاء ذلك مضطرٌ لرفض الضيافة شاكرًا، وبقي في أثينا عدة أيام عصيبة، ثم حصل على تأشيرة سفر إلى بلغاريا، وأثناء صعوده للطائرة استوقفه كاسمان، واثنان آخران من المخابرات الألمانية، طالبين منه عدم المقاومة، وأصدروا له أمرًا بعدم السفر، ومقابلة المايور فون بادن في الساعة العاشرة، وأجبر حينها ذو الكفل على العودة إلى الفندق، وعند لقائه فون أخبره الأخير أن برلين ترى إبقاءه في أثينا لحين إشعار آخر!

بعد بضعة أيام حضر إلى أثينا جورج كاسبر، الملحق الثقافي الألماني في بغداد قبل حركة الكيلاني، وكان متحمسًا للعرب، فاتصل بذي الكفل، وطلب منه التريث والانتظار في أثينا، وأبلغه بأن الأستاذ راسم الخالدي سوف يصل لأثينا بتعليمات من سماحة المفتي.

وصل الخالدي إلى أثينا بعد يومين، وأخبر ذا الكفل بأنه تم إنهاء الخلاف مع الألمان، والذي كان قائمًا على شعور

لعرب بخذلان الألمان لهم أثناء حركة الكيلاني، وأنه تم تشكيل مكتب عربي في برلين لخدمة الأغراض العربية، وكلف الخالدي ذا الكفل بالإشراف على محطة إذاعية عسكرية ناطقة باللغة العربية في أثينا لخدمة الأغراض العربية، وموجهة للوطن العربي باسم إذاعة «العرب الأحرار»، ليس للألمان أي سلطة عليها، إلا أن تذاع من خلالها بياناتهم لعسكرية دون تحريف، فقبل ذو الكفل بشكل مؤقت إلى أن تسنح الفرصة لتنفيذ حلم العودة للوطن بالسلاح، وبمن تم تدريبهم عسكريًا.

عمل ذو الكفل بمحطة إذاعة «العرب الأحرار»، وشغل جميع المناصب تقريبًا لمدة عام، حيث لم يصله أي حديث، أو مشاركة من العرب المقيمين في برلين، أو روما، كما وعده الخالدي، وكانت الإذاعة تبث إرسالها مرتين يوميًا لمدة نصف ساعة ظهرًا، وساعة في المساء، وكانت مسموعة في الوطن العربي إلى الحد الذي جعل المستعمرين يحظرون سماعها، واضعين لمستمعيها عقوبة الحبس والغرامة.

تكررت مطالبة ذي الكفل للمفتي بتنفيذ خطة العودة بالسلاح والمدربين إلى فلسطين، فاستدعاه إلى برلين في أوائل عام ١٩٤٣، وكانت إذاعة برلين (القسم العربي) في أسوأ أوضاعها، ووسط تزايد احتجاجات الأوساط العربية، عرض الألمان على المكتب العربي استلام القسم، وإدارته على نمط إدارة «إذاعة العرب الأحرار»، فقبل المكتب، وكلف ذا الكفل عبد اللطيف بإدارتها.

إثر الإلحاح على المفتي، وبعد عدة مرات، قرر فيها سماحته الاتصال بالألمان، وحدد له اسم الشخص الذي يتصل به في برلين لإتمام العملية، ففعل، وبدأ يتردد على برلين حسب خطة لتنفيذ عملية تسليح وتدريب الفلسطينيين، استعدادا لمعركة الاستقلال.

لم يكن يعلم عن التجهيز شيئا سوى المفتي، وكل من الدكتور فرحان الجندلي، والدكتور مصطفى الوكيل، حيث كانا حلقة الوصل بين كل من المفتي والألمان، إلى أن تساءل حسن سلامة عن سلامة الاشتراك في العملية، وقابل المفتي.

تدرب ذو الكفل، وحسن سلامة على الهبوط بالمظلات، وكان الأخير تلقى تدريبًا للمشاة في العراق، وآخر في إيطاليا، أما ذو الكفل فكان حاصلًا، كما أسلفنا، على دورة ضباط الاحتياط في الكلية العسكرية الملكية في العراق، بعد تخرجه في دار المعلمين العالية، وبعد الموافقة على العملية حصل على دورة كوماندوز.

تم التخطيط للعملية على أساس الهبوط، وتكوين رأس جسر في فلسطين، مكونًا من ذي الكفل، وحسن سلامة، وثلاثة آخرين من الضباط الألمان، ثم تأمين المقر، وإجراء الاتصالات الضرورية لسير العملية، والاتصال بالمقر في ألمانيا لوضع البرامج، والإمداد بالأسلحة، والرجال العرب المدربين، ولم يفت المفتي أن يوصي ذا الكفل مشددا في حالة حدوث أي اضطرار أن يتصل بثقته، وقريبه علي محيي الدين الحسيني.

بدأ تنفيذ العملية في أكتوبر/ تشرين الأول، وبنوع من الخطأ ترتب عليه النزول في منطقة مغايرة للمنطقة المتفق على الإنزال بها، فهبطوا في أرض منبتة، مليئة بمزارع الموز تابعة لآل الحسيني، وفيها ضاعت حمولة السلاح، فأسرع حسن سلامة حتى يهيئ للفرقة محطات انتقال، واتصل ذو الكفل، بعد وقت عصيب، بعلي محيي الدين الحسيني،

ثقة المفتي، الذي رفض مساعدتهم، وطلب منهم المغادرة، معللًا موقفه بأنه تم الاتفاق مع البريطانيين على إيقاف الهجرة، والحصول على الاستقلال بعد الحرب، وأن الإنجليز صادقون في وعدهم، بدليل السماح للفلسطينيين بحضور مشاورات الجامعة العربية، ممثلين بـ «موسى العلمي»، فحاول ذو الكفل تشكيكه في ذلك الوعد كغيره، وتذكيره بمواقفه الوطنية السابقة إلا أنه تمسك برأيه، فاضطروا للرحيل، إلا أنه وبعد عناء ومشقة تمكنوا من المغادرة في الجبال، وبعد ليلة طويلة من العذاب في الجبل تم تسليمهم لجنود الإنجليز، وتم التحقيق مطولًا معهم، وفي أبريل/ نيسان ١٩٤٥ أبلغتهم الحكومة البريطانية بأنه ليس لديها قضية تجاههم، وأنهم سوف يعاملون كأسرى حرب، وبعد مدة تم نقل الألمانيين فرانك، وفيلاند إلى معسكرات أسرى الحرب، أما الأخير وكان يدعى داينجر فلم يعثر له على أثر، وعلمت المجموعة فيما بعد بأنه عثر عليه تائهًا في جبال فلسطين مصابًا بلوثة.

لم ينقل ذو الكفل عبد اللطيف إلى معسكر أسرى الحرب، وإنما بقي قيد الحجز الانفرادي، غير أنهم بدلوا ثيابه بأخرى عسكرية قذرة، وحذاء عسكري قديم واسع جدًّا، من دون رباط.

في حوالي الثلث الأول من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٦، استدعي ذو الكفل إلى غرفة الاستجواب، فوجد فيها أحد المحققين معه سابقًا، وبعد أن أسمعه عبارات مجاملة، بادر بسؤالين عن شخصين فلسطينيين، هما موسى الحسيني، أحد أقرباء المفتي، وموسى أبو السعود، وهو ابن السيد حسن أبو السعود، طالبين معرفة ثقافتهما الدينية، والعامة، ومدى تمتعهما بالحب والقبول لدى أبناء فلسطين، ففهم ذو الكفل على الفور أن بريطانيا تخطط للتخلص من المفتي، وتأثيره على الشارع الفلسطيني، وعمله النضالي، وأجاب على الفور بأن ما تخطط له بريطانيا سوف يجر عليها متاعب كثيرة، ونصحهم بأن يوفروها على أنفسهم.

بعد عناء البقاء في الحجز الانفرادي، والسجن الحربي، ومعسكر الترانزيت، ومعاناة ويلات كل منهم، وفي منتصف مارس/ آذار عام ١٩٤٦ نقل ذو الكفل عبد اللطيف إلى فلسطين، وتسلمته حكومة الانتداب البريطاني، التي اعتقلته بعد أن رفضت حكومة الانتداب المدنية في فلسطين تسلمه؛ ولذا تم تسليمه بإيصال مع مجندين آخرين من الفيلق اليهودي بالجيش البريطاني إلى حراس التوقيف بقشلاق القلعة في القدس، وكان أحد الحارسين عريف (شاويش) عربي، تعرف عليه ذو الكفل لحظة تسليمه، فعرفه بنفسه، فطار فرحًا، وأخبر عائلته بوجوده.

بعد إتمام إجراءات التسليم سلمه العريف البريطاني من الحرس برشًا، وأدخله بهوا واسعًا، ذا إضاءة خافته، غاصًّا بأشخاص نائمين يفترشون أبراشا مرصوصة. قضى فيه ليلته حتى الصباح، حيث استيقظ رفاقه، وبدأوا يشغلون أنفسهم بمن عساه أن يكون؟! وظنوه جميعهم أجنبيًّا لا يعرف العربية، وعندما حاول أحدهم الاحتكاك به تأكدوا من أنه عربي، فأثار دهشتهم، خاصة وأنه كان مرتديًا ملابس عسكرية، وحينها تعرف على أحدهم، وناداه باسمه، مما أثار دهشة الجميع، فانقضوا عليه يعانقونه، ويحيونه، فبعد أن انقطعت أخباره، ظن من يعرفونه أن البريطانيين قتلوه.

في التاسعة صباحًا، وعندما عاد الشاويش العربي الذي تسلمه لاستلام نوبته، والذي كان جارا لأهل ذي الكفل، وكان فور عودته من عمله توجه لدارهم، وأخبرهم بوجوده، حضر إخوته لرؤيته، وأحضروا موائد الطعام لكل المحتجزين معه، وقد بقي في ذلك المكان ٤٨ ساعة، غادره بعدها إلى سجن القدس المركزي بالمسكوبية، حيث تعرف

ذو الكفل على مجموعة من النزلاء الذين يقضون عقوبات عن تهم وطنية، ومنهم السيد محمود العنتبلي، الذي تزامل معه في كلية روضة المعارف الوطنية، وكان من أعضاء الفرقة الرياضية، التي كان ذو الكفل رئيسًا لها، فحيوا بعضهم بعضا من بعيد، ثم اقتيد عبد اللطيف لمقابلة مدير السجن، وكان معظم النزلاء من خيرة شباب فلسطين، ومثقفيها الذين صدرت عليهم أحكامًا بالمؤبد أو بالسجن لمدد طويلة عن تهم وطنية، وأثناء الثورة الوطنية الفلسطينية (١٩٣٦-١٩٣٩).

قضى ذو الكفل في سجن القدس أربعة أيام، فيما يشبه الاستجمام، فالملابس نظيفة، والمكان جيد، والطعام يأتي من بيوت عائلات النزلاء جميعًا، وكان سمرهم وأحاديثهم حول أوضاع البلاد السياسية، فضلًا على سهولة الاتصال بالخارج، إلا أن ما عكر صفوه هو أن أحدًا من أعضاء جماعته السياسية لم يزره، وأنه عندما طلب لقاء جمال الحسيني الذي سمح له بالعودة إلى فلسطين، أو إميل الغوري، لإطلاعهما على بعض ما يفيد «الحزب العربي» في المفاوضات التي كانت دائرة، حينها، على أمل إيجاد حل للقضية، لم يهتم أيهما بزيارته، غير أن صديق طفولته ودراسته، عادل النشاشيبي، كان يرسل كل يوم ليسأل ذا الكفل عن احتياجاته، فكان الأخير يرد شاكرًا ممتنًّا.

في صباح اليوم الخامس، نُقل ذو الكفل إلى معسكر اعتقال في صرفند، خاص بإرهابيي الصهاينة من عصابتي «الأرجون»، و«شتيرن»، اللتين كانتا تشنان حربًا تخريبية ضد السلطات البريطانية. وأدخل إلى زنزانة، قضى فيها حوالي أربع ساعات، نقل بعدها إلى سجن نابلس، حيث تم تسليمه، فتعرف على بعض القائمين على شؤون السجن، ووجد فيه بعض الذين اعتقلوا لصلتهم بقضيته، مثل المجاهد الباسل أبي الخير، وكانت تهمته أنه آوى أبا علي (حسن سلامة)، زميل ذي الكفل في العملية، ولم تثبت التهمة، فلم يحاكم أبو الخير، وأيضًا، أخبره أبو الخير عن دس الدكتور مهدي الحسيني عليهم، بهدف استدراجهم للاعتراف، وتنبهت إدارة السجن لذلك، فلم يبقوهم معه غير يوم واحد، أطلق سراحهم بعده.

كان سجن نابلس، كباقي سجون فلسطين، يضم إلى جانب المجرمين العاديين آخرين محكومًا عليهم بتُهم وطنية، أثناء الثورة الفلسطينية، فمحاكم الانتداب كانت تعتبرهم مجرمين كغيرهم، وتصدر ضدهم أحكاما ظالمة، وتزج بهم في السجون مع معتادي الإجرام، من القتلة واللصوص، وعلى الجانب الآخر ، كانت سلطات الانتداب تعامل إرهابيي الصهاينة معاملة مجاملة، حيث يتمتعون في معتقلاتهم بالحرية، وتزودهم بالمسليات، فتعتبر معسكرات اعتقالهم معسكرات رياضية، ترفيهية .

كان من بين نزلاء سجن نابلس بعض مجاهدي الثورة، ومنهم السيد سليمان العوام، من الخليل، وآخرون غيره. وقد لقي ذو الكفل في سجن نابلس معاملة طيبة من قبل الإدارة العامة للسجن، الذين أصبحوا جميعهم معه أصدقاء، بما فيهم المدير البريطاني، وامتدت بينهم جسور الثقة إلى حد أنه كان يصطحبه للجلوس معه في الحديقة خارج السجن، غير شاك في أنه سوف يؤذيه بمحاولة الفرار.

في مارس/ آذار ١٩٤٧ انتهت مدة السنة التي كانت محددة لاعتقال ذي الكفل، وفي نهايتها حضرت إلى معتقله لجنة لاستجوابه وكتابة تقرير عنه، واعتقد بأنه سوف يطلق سراحه، إلا أنه أبلغ بأنه تم تجديد اعتقاله لمدة ستة أشهر أخرى، وخلال هذه المدة جاءته رسائل عدة من شباب وطني من أهل مدينة نابلس يعرف بعضهم ولا يعرف

الآخر، اتفقوا جميعهم على استعدادهم لمساعدته على الفرار من المعتقل، لكنه رفض، معتقدًا بأنه سيتم خروجه في نهاية المدة الجديدة، لكن أمله خاب للمرة الثانية، حيث حضرت اللجنة واستجوبته بالأسئلة نفسها، تقريبًا، فكرر الإجابات نفسها، وكانت جميعها تدور حول رأيه في التقسيم، وموقفه من الثورة. فعرضت اللجنة عليه التعاون مع سلطات الانتداب، وكان يجيب بأن ما بني على باطل فهو باطل، وأن الانتداب بني على تصريح بلفور، الذي لا شأن له بفلسطين، ودون أخذ رأي أبنائها الذين يرفضونه جملة وتفصيلًا، وهو كبقية أبناء فلسطين يرى ذلك، وفي الوقت ذاته، كانت الحالة تنم عن تجاوب السلطات الحاكمة والوطنية العربية في وجه الإرهاب الصهيوني المستشري ضد المصالح البريطانية، فشعر بالتفاؤل تجاه قرار اللجنة التي صدمته بأن جددت مدة اعتقاله عامًا آخر. في الوقت نفسه أعلنت الحكومة البريطانية بأن حكومة الانتداب وقواتها ستخلي البلاد في ١٥ مايو/ آيار ١٩٤٨ ، أي قبل نهاية مدة اعتقاله! وسأل أصدقاءه في سجن نابلس، فبحثوا ملفه، وتوصلوا إلى أنه سيتم نقله إلى المستعمرة البريطانية في كينيا، فصمم على الهرب، واستجاب لعرض أحد الشباب الذي استشعر إخلاصه، وهو مأمون قطب، فاتفقوا على تنفيذ مخططهم، وفيه اصطنع ذو الكفل المرض، وساعده طبيب مستشفى السجن، وتم نقله إليها، واستكملوا خطة محكمة لتهريبه من المستشفى، رغم الحراسة المكثفة الذي كانت تحرسه أثناء تواجده بالمستشفى، ونجحت الخطة، وهرب في النصف الأخير من شهر ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٤٧.

كان محظورًا على الشرطة البريطانية ورجال الجيش دخول مدينة نابلس مساء، فبقي ذو الكفل ومنفذو عملية هربه في الجبل حتى حل الظلام، فنزلوا إلى المدينة، حيث استقبلهم لفيف من رجال نابلس الوطنيين، ومنهم رئيس بلديتها آنذاك، سليمان طوقان، وذهبوا إلى بيته، واجتمع حشد من المهنئين، من بينهم الأستاذ قدري طوقان، وفي جو من الحب والتفاؤل دارت أحاديث وطنية، ملأها الأمل بحدوث التفاهم بين مختلف الأحزاب الفلسطينية، وتوحيد العمل الوطني، خاصة وأن سماحة المفتي وصل واستقر في القاهرة، والتفت حوله مختلف الشخصيات الفلسطينية، بينهم أشد خصومه، سليمان طوقان، الذي طلب من ذي الكفل البقاء في منطقة جبل نابلس ليشرف على تنظيم وقيادة المجاهدين، وأيده جميع الحضور في ذلك، فوافق ذو الكفل، على أن يمنحوه فترة عشرة أيام للراحة والاستجمام، بعد عناء السجن.

أقام عبد اللطيف بجبل نابلس أربعة أيام، رتب خلالها خروجه من فلسطين، مرورًا بعمان، ليصل إلى سوريا، ورافقه في رحلته أخوه عادل، وبعض من ساعده في هربه من السجن، ونزلوا في عمان على دار صديق لهم، الذي أصر ألا يتركهم إلا بعد تناول الغداء، إلا أنهم علموا بأن السلطات علمت بوجودهم في عمان، فأسرعوا بالخروج، وفعلًا تمكنوا من الوصول إلى الحدود السورية قبل وصول أي تعليمات بشأنهم إلى الحدود الأردنية.

دخل ذو الكفل ورفاقه إلى دمشق بأسلحتهم كاملة، وبقي فيها ثلاثة أيام، تلقى فيها تعليمات من المفتي قضت بضرورة الاتصال به تليفونيًا، ونظرًا لتعذر ذلك من دمشق ذهب إلى بيروت، ومنها أجرى اتصاله مع المفتي، الذي طلب منه سرعة القدوم إلى القاهرة للتفاهم على أسس العمل، وللاستجمام أيضًا، وساعده على السفر للقاهرة الأستاذ إميل الغوري، فدخلها في بدايات عام ١٩٤٨.

وصل ذو الكفل إلى القاهرة، واستقبله فيها بترحاب الحاج أمين الحسيني، وجميع من كانوا معه في أوروبا، وخاصة في ألمانيا، ثم انفرد به المفتي ليسمع منه تفاصيل الأحداث التي مرت به طوال الفترة السابقة على ذلك اللقاء، ومنذ

مغادرته برلين، وعندما أخبره بما فعله مجاهدو نابلس معه، خلال عملية تهريبه من المعتقل بسجن نابلس، حتى تأمين وصوله إلى سوريا، قرر المفتي لكل منهم جائزة مناسبة من السلاح، أرسلها لهم عن طريق شباب آل الحسيني، لكنهما علما، فيما بعد، بأن الأسلحة لم تصل لمن أرسلت لهم!

كان ذو الكفل متعجلًا العودة إلى نابلس، وفاءً بوعده لأهلها، إلا أن المفتي استمهله للتفاهم على أسس العمل، فظل الأول يلح حتى أخبره المفتي بأن نابلس، على أهميتها، ليست مطمعًا للصهاينة، بخلاف القدس؛ ولذلك فإن المفتي يرى بأن يكون ذو الكفل آمرًا لحامية القدس لتنظيم الدفاع عنها، خاصة وأنه من أبناء المدينة المقدسة، ويعرفها جيدًا، وتربطه بأهلها صلات جيدة، ووعد المفتي صاحبنا بأن يمده بالسلاح، والمعدات، والإمكانات اللازمة، وذكر له بأن أهالي نابلس سوف يتقبلون هذا العذر، وأن المفتي سوف يتكفل بإبلاغهم بذلك، وطلب منه دراسة الموقف والموقع.

حضر إلى القاهرة، بعد عدة أيام، أنور نسيبة، أمين سر اللجنة القومية في القدس، والدكتور عزة طنوس، عضو اللجنة، فقابلهما ذو الكفل عدة مرات أسفرت عن وضع تقرير بالاحتياجات التي وعد المفتي بتدبيرها.

تأخر السفر إلى القدس، فأخذ ذو الكفل يلح على المفتي، والأخير يستمهله، وعندما شعر عبد اللطيف بأنه سئم المماطلة، أخبره المفتي بأنه سيذهب للقدس، إلا أن هناك بعض الأمور التي يجب تسويتها، وأن الأسلحة لم يتم تدبيرها بعد، وطلب منه التريث بعض الوقت، وطلب منه إنشاء مكتب عسكري، وإعداد كادر له، وعينه مديرًا لهذا المكتب!

ظل المكتب العسكري للهيئة العربية العليا بعيدًا تمامًا عن مجريات الأمور العسكرية، وظل المفتي يصطحب ذا الكفل في جميع سفرياته إلى سوريا أو لبنان، واعدًا إياه بأن يسافر من هناك إلى القدس إذا تم توفير الأسلحة، لكن سرعان ما كان عبد اللطيف يكتشف مماطلة المفتي، ففهم بأن المفتي يبقيه تحت بصره فحسب! استمر الحال كذلك حتى استشهد عبد القادر الحسيني أثناء تواجدهما في دمشق في ٧/ ٤/ ١٩٤٨، وعلى إثر استشهاده تم تعيين ذي الكفل قائدا لمنطقة القدس خلفا للشهيد بإجماع قيادة الجيوش العربية: اللجنة العسكرية، والهيئة العربية العليا، وأبلغه المفتي بالقرار في اجتماع عقد في دمشق، في الواحدة بعد منتصف الليل، حضره كل من العميد طه الهاشمي، والعقيد محمود الهندي، أمين سر اللجنة العسكرية المنبثقة عن جامعة الدول العربية، وحسن سلامة، رفيقه في عملية الإنزال بالمظلات، والأستاذ إميل الغوري.

قابل شباب آل الحسيني خبر تعيين ذي الكفل خلفا للشهيد عبد القادر الحسيني بثورة عارمة، فهم يرون أن يتم تعيين آخر من آل الحسيني بصرف النظر عن كفاءته، وخبراته بالمجال! ولما فشل ذو الكفل في إقناعهم أشار عليه حسن سلامة بقتالهم، لكنه رفض، وسافر إلى بيروت، ومنها إلى القاهرة، محملًا برسالة للمفتي، سطرها الأستاذ إميل الغوري، بما شاهده من موقف شباب آل الحسيني.

استدعى المفتي شباب آل الحسيني إلى القاهرة، فحضروا، وحضر معهم قاسم الريماوي، وكان سكرتيرًا للشهيد عبد القادر الحسيني، وقد أطلق على نفسه سكرتير عام «الجهاد المقدس»، واجتمعوا بالمفتي لمدة ستة أيام، سقطت خلالها مدينة القسطل في أيدي العدو، بعد أن استشهد دونها عبد القادر الحسيني، وكان مطلوبًا أن يتوجه ذو الكفل

لإمداد مقاتليها بالسلاح فورًا، لولا موقف هؤلاء الشباب، وبذلك أصبح العدو يسيطر سيطرة كاملة على مدخل القدس من ناحية يافا.

حلًّا للموقف، خالف المفتي اتفاق دمشق، وعين خالد الحسيني قائدا عامًّا يساعده مساعدان، هما ذو الكفل عبد اللطيف، ومنير أبي فاضل، الذي كان نقيبا في مباحث الانتداب البريطاني! ولا علاقة له بالشأن العسكري، ثم تم توزيع باقي شباب آل الحسيني على بقية الوظائف، فامتعض ذو الكفل، وخالف أوامر المفتي للمرة الأولى، فطلب منه المفتي وعدًا بأن لا يذكر ما حدث في الشام لأحد فوعده وانصرف.

تلاقى المفتي وذو الكفل عدة مرات لفترات طويلة، تحدثوا فيها عن أمور كثيرة، فهم منها ذو الكفل بأن ثمة أمورًا عائلية داخل عائلة المفتي كانت سببًا فيما حدث، ووقفت وراء موقف المفتي، فثمة أناس من أفراد عائلته يستخدمون اسمه، وفي الوقت نفسه يعملون ضده، وبعد أن صرح له المفتي بمكنونات نفسه عاتبه ذو الكفل على تأخير تنفيذ قرار تعيينه آمرًا لحامية القدس فور نجاته من الأسر، وحينها كان يسهل أن يحول من آمر لحامية القدس إلى قائد للمنطقة، خاصة وأن الشهيد عبد القادر الحسيني كان صديقًا له، وزميلًا في مراحل النضال السابقة، وهنا صرح له المفتي بما أصابه بالدهشة، حيث أخبره بأن الشهيد كان يعارض ذلك، وكان يبرر ذلك بأنه لا يستطيع التعامل مع ذي الكفل، واصفًا إياه بأنه عسكريٌّ صلبٌ، وعنيفٌ، ونازيٌّ، فتساءل لماذا لم يخبره المفتي بذلك حينها، فأخبره بأنها كانت رغبة الشهيد عبد القادر الحسيني نفسه.

طلب المفتي من ذي الكفل أن يعود لإدارة «الجهاد المقدس» بصفته مديرًا لمكتب الهيئة العسكري، إلا أن ذا الكفل اعتذر، وأبلغ المفتي بأن المكتب اسم على غير مسمى، واقترح بأن يعفيه من مسؤولية الشؤون العسكرية، وطلب أن توكل إليه أعمال مدنية في الهيئة، معللًا ذلك بأنه ليس عسكريًّا محترفًا، وإنما هو بحسب الأصل مدرس للتاريخ، وأن دراسته العسكرية كانت عبارة عن دورات إعداد، ليكون جنديًّا مدربًا لخدمة وطنه، وطالما أن ذلك عز عليه، فليخدم بلاده مدنيًّا، فوعده المفتي بالعمل على تهيئة أسباب الخدمة العسكرية له، وإرساله للجبهة، وطلب منه أن يعود للعمل كمدير للمكتب العسكري للهيئة، ووعده أيضًا بأنه سيهيئ له كافة الأسباب والظروف الملائمة للإشراف الكلي والمباشر على كافة الشؤون العسكرية، وطلب منه استلام المقر الجديد الذي تم استئجاره للمكتب، والقيام بتأثيثه بكافة الإمكانات اللازمة لجعله اسما على مسمى.

تسلم ذو الكفل المكتب بحماس منقطع النظير، وأثثه لمواجهة المتطلبات العسكرية، وزوده بخرائط عسكرية طبوغرافية، ذات إحداثيات مفصلة لفلسطين، وساعده في الحصول عليها الضابطان في الجيش المصري رشاد مهنا، والملازم طيار محمد حسين خيري، وطلب من سماحة المفتي أن يصدر قرارًا موجها إلى كافة الجهات التي لها علاقة بالمجهود الحربي، وإلى قيادة «الجهاد المقدس»، وجميع فصائله في الميدان، يخبرهم بالتنظيم الجديد في المقر، وأن تكون صلة الجميع بالقيادة العليا ، الممثلة في شخص المفتي ـ بخصوص الشؤون العسكرية ـ عن طريق المكتب العسكري، فوافق المفتي.

استمر الحال لعدة أسابيع دون تغيير حتى منتصف سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، حيث يتم تصريف مختلف الشؤون العسكرية ارتجالًا من قبل سماحة المفتي.

كُلف ذو الكفل عبد اللطيف بالسفر إلى غزة، التي كانت اسميًا تحت إشراف «الجهاد المقدس» فيما هي، فعليًا، تحت الإشراف المصري، ليختار للمفتي سكنًا في موقع تكتيكي يشرف على مدينة غزة، ويسهل الهروب منه إذا اقتضت الظروف، كما كلف أمين عقل بالسفر لغزة، أيضًا، للاتصال برجالها والحصول منهم على وعد بالمؤازرة فيما سيتخذه المفتي من خطوات بالنسبة لغزة.

سافر المكلفان إلى غزة، وساعدهما محافظ سيناء العسكري، فأنجزا مهمتيهما، وعادا إلى القاهرة، فانهمك ذو الكفل مع جهاز الهيئة العربية في التحضير للمؤتمر الوطني الفلسطيني، وكان مقررًا له أن ينعقد في غزة في أول أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٤٨.

كان المقرر بأن تنبثق عن المؤتمر حكومة فلسطينية؛ لذلك اتفق على أن يدعى للحضور من سبق أن كان له صفة تمثيلية، مثل رؤساء البلديات، وأعضاء مجالسها، ورؤساء الغرف التجارية، وأعضاء اللجان القومية، والوفود، والبعثات السياسية، والأحزاب، والهيئات الأخرى. إلا أنه لم تراع الحيدة في توجيه الدعوات، بل تدخلت العوامل الشخصية في أمور كثيرة، وغابت الموضوعية كأساس للاختيار، مما جعل الحضور لا يمثل جميع فئات الفلسطينيين، مكتفين بالموالين للحزب العربي الفلسطيني الداعي للمؤتمر!

في الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، توجه المفتي، والمدعوون لعقد المؤتمر الوطني إلى غزة، وأوكلت مهمة الحراسة، وتأمينها لكل من ذي الكفل عبد اللطيف، وعبد الحق الغزاوي، وأثناء مرور ذي الكفل لتفقد حال الأمن في القطار التقى بزملائه وأصدقائه: أكرم زعيتر، وواصف كمال، ورفيق التميمي. فدار بينه وبين التميمي حديث اتسم بنقد الذات فيما يتعلق بأداء «الحزب العربي الفلسطيني» الذي ينتمي كلاهما إليه، فيما يتعلق بإسباغ صفة التمثيل على بعض الموالين ممن لا تنطبق عليهم، وحجبها عن آخرين غير موالين تنطبق عليهم الصفة، وأن ذلك لا يصح، خاصة في الوقت الذي يتطلب أن يتكتل ويتحد جميع أبناء الوطن لمواجهة العدو الصهيوني.

غاب عن المؤتمر الكثير من العناصر الفلسطينية، لكنه انعقد بمن حضر، وترأسه الحاج أمين الحسيني، رئيس «الهيئة العربية العليا». وانتهى المؤتمر إلى قرارين هما:

١ - إعلان استقلال فلسطين استقلالًا تامًّا، موحدة، يحدها من الشمال سوريا، ولبنان، ومن الشرق سوريا وشرق الأردن، وغربًا البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب مصر.

٢ - تشكل «حكومة عموم فلسطين»، برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي باشا، وتضم جمال الحسيني وزيرًا للخارجية، ورجائي الحسيني للدفاع، وعوني عبد الهادي للشؤون الاجتماعية، وأكرم زعيتر للمعارف، وحسن فخري الخالدي للداخلية، وعلي حسنة للعدل، وميشيل أبكاريوس للمالية، ويوسف صهيون للدعاية والنشر، وأمين عقل للزراعة.

بعد الانتهاء من أعمال المؤتمر، عاد المفتي وبعض رجاله، وعاد ذو الكفل إلى القاهرة ليتولى مهام عمله كمدير للمكتب العسكري للهيئة، وبعد فترة قصيرة استدعاه المفتي ومعه وزير الدفاع رجائي الحسيني، وطلب المفتي من ذي الكفل أن يضع، في أسرع وقت، نظامًا وكادرًا لوزارة الدفاع، فعكف ذو الكفل على إعداده بالتعاون مع عبد الحق العزاوي.

سلم ذو الكفل إلى سماحة المفتي النظام الذي تم إعداده لوزارة الدفاع، والكادر الخاص بها، فوعده المفتي بتحويل

المكتب العسكري إلى وزارة دفاع، حينما يتم تجهيز الميزانية اللازمة لذلك، لكن الوعد ظل وعدًا لم يتحقق، وظل ذو الكفل يلح على تحقيقه.

الغريب في الأمر أن الوزارة التي تم تشكيلها، أثناء انعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني في غزة، لم تجتمع بكامل تشكيلها قط، بل إن أعضاءها انسحبوا تباعًا، وكانت هيمنة المفتي، وانفراده بالإدارة في كل شيء، ومركزيته الشديدة سببًا لذلك.

لم يختلف الأمر كثيرًا على صعيد جبهات، ووحدات «الجهاد المقدس»، وكان المفتي على علم بكل ما يجري هناك، وكلما سأل عبد اللطيف عن التصرف يستمهله، فيما يكون المفتي عالجها عن طريق الاتصال المباشر بالطريقة السابقة. فعاد الوضع إلى ما كان عليه، وعاد المكتب العسكري اسمًا على غير مسمى، لا يقوم بدور، ولم يتحول إلى وزارة دفاع، وتكرست الفردية والمركزية في شخص أمين الحسيني.

اتسم أداء المفتي بكثيرٍ من الأمور السلبية التي لا يرضاها وطني وَهَبَ حياته للدفاع عن قضيته، مستعدًّا للتضحية بروحه في سبيلها، بل كان يحمله أمام فصائل المجاهدين نتيجة تصرفات المفتي، فالكل كان يعلم بوجود القيادة، ولكنهم لا يعلمون بأنها لا علاقة لها بتصريف الأمور العسكرية، وأنه حينما تصل برقيات طلب النجدة، من مال وسلاح، لا يتصل علم القيادة بها، والأغرب أن المفتي كان يراسلهم، طالبًا منهم الاستدانة لتدبير أمورهم إلى حين، ليتمكن من إرسال المال والسلاح لهم، في حين كان يخص الأسلحة لآل الحسيني، ويباطل غيرهم بذريعة ندرة السلاح!

إزاء تصرف المفتي هذا، تحامل المجاهدون وقادة الفصائل على ذي الكفل، وأرسلوا للمفتي رسائل حوت هجومًا شديدًا عليه، واتهمته بأفظع الاتهامات، وكان المفتي يُطلعه على هذه الرسائل، وكان ذو الكفل ينتهز الفرصة ليعاتب المفتي على أنه لم يُنفّذ ما اتفقا عليه، ليمكّنه من أداء عمله، فيتهرب المفتي من الإجابة، وبعدها انقطعت صلته بذي الكفل تمامًا.

استاء ذو الكفل من تصرف المفتي، ورأى بأن يسأل بعض رفقاء النضال المقربين إلى المفتي، ووقع اختياره على كل من إسحاق درويش، ابن شقيقة المفتي، وحسن أبي السعود، مفتي الشافعية في فلسطين، والذي لم يجب بأي رد، أما الأول فأخبره بأنه لم يعد يفكر بتفكيرهم السياسي متعلّلًا بالحديث الذي دار في القطار أثناء السفر إلى غزة مع رفيق التميمي أمام كل من أكرم زعيتر، وواصف كمال، فضلًا على أنه كلما زار الشام التقى بعزة دروزة، وبواصف، مما زاد امتعاضه أكثر من هؤلاء الناس، وطريقة تفكيرهم التي لا تتناسب مع تسيير أمور الوطن!

واجه ذو الكفل سماحة المفتي بما سمعه من إسحاق درويش، فطلب المفتي منه الصبر، فلم يطق ذو الكفل صبرًا، وأخرج ما كان في نفسه من ضيق وتبرم، فواجه المفتي بعيوب أدائه التي تتركز في شخصه، فضلًا على الاعتماد على نفر قليل غير أكفاء، بينما تزخر فلسطين بالشباب الوطني، المثقف، والمتمرس، والمتخصص، أيضًا، والذي يسعده التفاني والتعاون مع المفتي لمصلحة القضية، فعلل المفتي اعتماده على أولئك النفر بأنهم مخلصون له، أما الآخرون فإنهم انفصلوا عنه؛ لأنه لم يستطع الموافقة على مطالبهم، وأساليبهم! فأصر ذو الكفل على أن انفصالهم كان بسبب إصرار المفتي على تركيز كل شيء في شخصه، وبعد أن هدأ المفتي أخبر ذا الكفل أن الأمور ستعود إلى طبيعتها.

انصرف ذو الكفل عائدًا لمسكنه، وهناك سَطرَ رسالة للمفتي، ذكر فيها أهم نقاط جاءت في حديثه معه، وألح عليه في رسالته طالبًا إعفاءه من الشؤون العسكرية، وإعادته لأي عمل يراه المفتي في الهيئة، بعيدًا عن الشؤون العسكرية، التي تبين بأنها أمور خاصة جدًّا.

بعد أيام قليلة تدهورت أوضاع «الجهاد المقدس»، وبدأت بعض الدول العربية تصفي قواته، وتصادر أسلحته، فاستدعى المفتي ذا الكفل، وعاتبه على رسالته سالفة الذكر، التي أكد فيها مرة أخرى بأنه من الضروري جدًّا سرعة تغيير كل جهاز الجهاد المقدس، وأوضح بأنه ليس من الضروري أن يكون هو أحد عناصر التغيير. وبيّن للمفتي بالملموس كيف سيعمل المدسوسون عليه في «الجهاد المقدس» باستعانتة بالجهلة من أهله، ومحاسيبهم على تصفية «الجهاد المقدس» بكل فصائله، فطلب المفتي من ذي الكفل أن ينتظر تعليماته!

استمر ذو الكفل في عمله كمدير للمكتب العسكري، وفي تلك الأثناء كانت تصفية فصائل «الجهاد المقدس» تتم بيد الحكومات العربية، تعاونها في ذلك العناصر التي اختارها المفتي للإشراف على «الجهاد المقدس»، ولم يُحَلْ لعبد اللطيف أي عمل سوى بعض الأوراق للحفظ.

حضر للقاهرة بعض العاملين بالجهاد المقدس، وبعض قادة الفصائل، ودعا المفتي لاجتماع بقاعة الاستقبال في منزله، وكان بين الحضور كل من كامل عريقات، قاسم الريماوي، وعبد الحليم الجولاني، وبعض ممثلي المرحوم إبراهيم أبو دية. وبعد قليل حضر المفتي إلى الاجتماع، وبرفقته رجائي الحسيني، ابن شقيقته، وزير الدفاع في حكومة عموم فلسطين، وحيدر كامل الحسيني، ابن شقيقه، وزوج كريمته، ورئيس مخابرات الهيئة العربية العليا، والمشرف على الشبكة اللاسلكية، التي تربط مختلف جبهات القتال بالقائد، بالإضافة إلى سكرتيره الخاص، محمد منيف الحسيني، وهو ابن شقيقه، أيضًا!

بدأ الاجتماع، وبعد إطراء على دور الحضور، من قيادات، وعاملين في «الجهاد المقدس» واستعراض الدور المتخاذل الذي قامت به الدول العربية في تصفية فصائله، تحدث الحضور تباعًا، وانصب حديثهم على تشتت وحدات «الجهاد المقدس» وروتينية تصفيتها، التي تسير وفقًا لخطة منظمة، وما تعانيه القيادات من مطالبات مالية نتيجة للاستدانة لمواجهة المواقف الحاسمة في المعركة، وأحيانًا لشراء السلاح انصياعًا لأوامر المفتي المرسلة في البرقيات لهم، وهنا أنكر المفتي صدور مثل تلك البرقيات عنه، مستشهدًا بذي الكفل، ظنا منه أنه لا تتوافر لديه صور منها، وأنه لا علم له بها، فضلًا على تصور المفتي بأن عبد اللطيف سوف يؤيد كلامه تملقًا، وكانت صدمته مروعة، إذ خاب أمله، فرد ذو الكفل مؤيدًا ما ردده قادة الفصائل، وأخبر المفتي بأن لديه صورًا للبرقيات حصل عليها مصادفة، واستمهله لإحضارها.

قرر المفتي بأن الاجتماع سوف يتم تأجيله إلى موعد قادم لإحضار صور البرقيات التي جهزها ذو الكفل، إلا أن الاجتماع لم يتم، بل كان فارقًا وحاسمًا في علاقة ذي الكفل بالمفتي، وأصبح معظم العاملين بالهيئة يتحاشون لقاء عبد اللطيف، فيما بعض الحسينيين يناصبه العداء، لقد كان لهذا الموقف فعل الصدمة على وزير الدفاع رجائي الحسيني، الذي ظل يردد «عجيب» عندما رأى صور البرقيات، كما أسفر عن علاقة حميمة ربطت بين كل من ذي الكفل عبد اللطيف، وبين صلاح الدين الحسيني، ابن المفتي، الذي كان غير راض عن كثير من تصرفات والده، وأساليب معالجته للأمور، وأيضًا عن الفتة التي يحيط والده نفسه بها.

بكل تأكيد كان ذو الكفل عبد اللطيف أحد الرموز الوطنية الفلسطينية الفاعلة في مرحلة تاريخية حساسة من تاريخ فلسطين الحديث، وإن كان ذلك المناضل الوطني المخلص لم تحقق نضالاته الأهداف التي كان ينشدها، فليس أقل من أن يتم تخليده في ذاكرة الأمة، ليس أقل من أن يأخذ مكانه اللائق بين نجوم العمل الوطني الفلسطيني في فترة تميزت بوعورتها، وتلاحُق أحداثها المصيرية، فلم يكن مثل هؤلاء المناضلين ينشدون مَغنمًا شخصيًّا، ولا مركزًا وظيفيًّا متميزًا، بقدر ما كانوا يعملون على تأسيس مستقبل حر ومشرق لفلسطين، فتكبدوا في سبيل ذلك كل صنوف القهر والتنكيل.

* * *

هوامش الفصل الثامن:

المصدر الأساسي للمعلومات الواردة بهذه الدراسة مأخوذ عن كتاب ذي الكفل عبد اللطيف، **مذكراتي/ قصة كفاحي من الثورة الفلسطينية الكبرى إلى حرب ١٩٤٨**، عمان، دار سندباد للنشر، ٢٠٠٠.

بالإضافة إلى:

(١) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، مركز الأبحاث، بيروت، مايو/ آيار، ١٩٧٥، ص١٥٩ - ١٨٧.

- إميل توما، جذور **القضية الفلسطينية**، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، دار الجليل، ط٣، دمشق، ١٩٨٤، ص ١٤٩ - ١٩٠.

- عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية، المحطات الرئيسية - الدروس المستفادة**، دار الحكمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٥ - ٢٢.

(٢) كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩**، ط٢، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ص٣١٠.

(٣) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٤) هنري كتن، **القدس**، ط١، دار كنعان للنشر، دمشق، ١٩٩٧، ص٢١.

(5) www.wikipedia.org.

(6) www.arabs.org.

(7) www.aljazeera.net.

obeikan.com

الباب السادس

الرؤية الصهيونية للقدس